جامعة أبو بكر بلقايد - تلمسان - قسم التاريخ
أستاذ المادة: د/ سمير مزرعي السنة الثانية ليسانس

المحاضرة الحادية عشر: مصادر تاريخ الجزائر المعاصر (الصحف والجرائد الاستعمارية)

تمهيد:

عرفت الصحافة على أنها إنشاء جرائد ومجلات ونشرات عن طريق الكتابة والطباعة، ونشر عن طريق الصحفي المحترف الذي يعرف ويعلم تقنيات العمل الصحفي، فالعمل الصحفي مرتبط بأساسيات احترافية تقنية تتعلق بالعمل الإعلامي الصحفي، وتوجد عدة أنواع في الصحف فمنها الصحف اليومية، والدورية وغير الدورية، وتكون باسم معين ومواضيع مختلفة وأجزاء متشابهة وشكليات مختلفة الأنواع والألوان، والهدف منها هو جمع واستقطاب عدد هائل من الأخبار وإعادة بلورتها، وتبسيطها والتحقق من مصداقيتها وتقديمها للجمهور مرة ثانية.

ونقصد بـ "الصحافة الاستعمارية" تلك الصحف والجرائد والمجلات التي أشرفت عليها الإدارة الاستعمارية نشرا وتمويلا وتوجيها، بصفة مباشرة أو غير مباشرة عن طريق التمويل أو الإشراف المهني لأرباب الإدارة الاستعمارية، إذ أدركت الإدارة الفرنسية الغازية ما للصحافة من أثر على الشعوب، ولقد كانت تسعى من خلال تطوير مجال الصحافة مرافقة الغزو الحضاري للغزو العسكري، وترسيخ الوجود الفرنسي، ومحاولة إقناع الشعوب المستعمرة بفضل الوجود الفرنسي الحضاري في الجزائر، وتنوير المعمرين بآخر المستجدات والأخبار، وتخويف الجزائريين وعزلهم عن المقاومات الشعبية بتشويه صور المقاومين وإنجازاتهم، و الدفاع عن المواقف الرسمية للحكومة الفرنسية، وتبرير قراراتها وقوانينها وأساليبها، والانتصار لفكرة الجزائر الفرنسية وربط المعمرين بموطنهم الأم، والتصدي لتأثير الصحف العربية المشرقية التي كانت تُسرب للجزائر بعد منع اللغة العربية.

1- الجرائد:

1.1- صدى وهران (l'écho d'Oran):

تأسست الصحيفة من طرف "أو دلف نيري" (Adolphe Perrie)في 12 أكتوبر 1844م، وكانت تصدر في البداية في باريس، ومع الثورة التحريرية في أول نوفمبر 1954م راحت هي الأخرى تعبر عن كراهيتها الدفينة للجزائريين، وسلكت مسلك الصحف الاستعمارية المعروفة في وصف المجاهدين بالمجرمين واللصوص وقطاع الطرق، حيث حاولت التأثير على عزائم الشعب الجزائري من خلال إعلامها المسموم والمزيف وانتهاج أسلوب التهريب، والاعتماد على سياسة "فرق تسد"، كانت هذه الصحيفة لسان حال فرنسا، فكانت تحفى بعملها الكبير لصالح وطنها فرنسا، لذا راحت تشيد بسياسة التقتيل والتنكيل التي كان يتعرض لها الشعب الجزائري على يد الجيش الفرنسي، وكانت ترى فيها سياسة مشروعة ضد المجرمين وقطاع الطرق، وهي تبرر السياسة الاستعمارية الفرنسية الفاشلة.

إضافة إلى هذا حاولت هذه الجريدة طمس الحقائق التي صنعتها ثورة نوفمبر 1954م، وتقزيم مكانة وقيمة مفجريها والتقليل من أهمية الأعمال الثورية الناجحة، قصد إفشال عزيمتهم وفصلهم عن بقية الشعب، وفي الوقت نفسه تضخم أعمال العدو الفرنسي رغم قلتها، فكانت تجعل من الإبادة الجماعية للجزائريين عملا مباحا ومشروعا.

ظلت الجريدة تنعت المجاهدين بكل الصفات الذميمة وتسميهم بشتى الأسماء منها الذئاب، كما كانت تحتفي في بعض مقالاتها مثلا بعمليات التمشيط الواسعة التي كان تقوم بها القوات الاستعمارية في جبال الأوراس التي كان يقوم بها وما كان ينجم عنها من توقيفات وتقتيل جماعي وتشريد الأسر، عملت جريدة "صدى وهران" على نشر الأخبار العسكرية، كحرب نفسية لكسر شوكة المجاهدين وإعادة الثقة للأوروبيين؛ بأن فرنسا سيطرت على الوضع بالقوة، بينما كانت تتكتم عن الإنجازات الثورية والانتصارات التي كان تحققها جبهة التحرير الوطني، كما أنها كانت تروج معلومات دعائية وصور توحي بأن مدينة وهران يعمها الهدوء والاطمئنان والاستقرار.

2.1- جريدة المبشر (Mobacher):

صدرت إدارة الاحتلال الفرنسي أول جريدة عربية في الجزائر بقرار من الملك لويس فيليب، وقد صدر عددها الأول يوم 15 سبتمبر 1847 الموافق لـ 5 شوال 1263هـ، وأوكلت مهمة الإشراف عليها إلى المكتب السياسي للشؤون الأهلية في الحكومة العامة، وظلت هذه الجريدة تصدر إلى غاية 1929.

لم تكن جريدة المبشر تصدر باللغة العربية في أول الأمر، بل كانت موادها تكتب أصلا باللغة الفرنسية ثم تترجم إلى اللغة العربية وكانت الإدارة الفرنسية تسعى إلى تحقيق جملة من الأهداف من وراء إصدارها لهذه الجريدة أبرزها إيصال قراراتها وقوانينها إلى الأهالي وجعلها مفهومة عندهم، وكذا التحدث إلى الجزائريين بلغة يفهمونها للتأثير عليهم، كما كانت تعكس بصورة مباشرة موقف الإدارة الاستعمارية من الثورات الشعبية باعتبار أن تلك الجريدة كانت تمثل لسان حال الحكومة العامة في الجزائر الموجهة للأهالي.

ومع تلك الترجمة التي كانت تخضع له مقالات جريدة المبشر من طرف الفرنسيين، فإنها كانت تترجم بلغة عربية دارجة ليس محبة للغة العربية أو تقديرا للجزائريين - ولكن لأنها اللغة الوحيدة التي كان الشعب الجزائري يفهمها آنذاك، فأصدرت السلطة الاستعمارية هذه الصحيفة الرسمية لاطلاع الجزائريين على التعاليم والقوانين الصادرة من الحكومة العامة، ومن ولاة المقاطعات الثلاث (قسنطينة، الجزائر، وهران)، فقد كانت تهدف إلى قتل روح المقاومة الوطنية لدى الجزائريين من خلال تلك الممارسات القمعية الصارمة في حق الأفراد والقبائل التي نهضت وثارت ضد الوجود الفرنسي، باستعمال لغة خطاب موجهة ترهب فيها الجزائريين بالعمل جاهدة في سبيل القضاء على كل الوشاة "أهل الشيطنة" على حد تعبير المبشر نفسها، واستمرت هذه الصحيفة في الصدور ولا يعرف الجزائريون غيرها طيلة القرن التاسع عشر بنفس الأسلوب واستخدام المصطلح الاستعماري المرغب في الاستعمار والمرهب للمقاومين.

وفي ساق متصل؛ قدمت جريدة المبشر معلومات شاملة ودقيقة وقيمة عن الجزائر وشعبها ومجتمعها اقتصاديا، اجتماعيا ثقافيا، تاريخيا، دينيا، نفسيا، أثنيا وجغرافيا، وهي خدمة تفوق خدمة العسكريين على الميدان وهي بذلك تصنف كجريدة استشراقية بامتياز خصوصا إذا عرفنا أن أول من أشرف عليها بين 1863-1847" هو البارون ديسلان" الذي يعرف بتوجهاته الاستشراقية.

3.1- جريدة لوجورنال دالجي (Le journal d'Alger):

تأسست جريدة "لوجورنال دالجي" سنة 1874 بمدينة الجزائر العاصمة، وكان عدد صفحاتها ما بين 6 إلى 8 صفحات، وكان عنوان الجريدة في تغير مستمر، وبعدما ضمت إليها جريدة "لوبوتي الجي" (Le petit Alger)، تغير عنوان الجريدة وأصبحت تحمل عنوان "البرقية الجزائرية" سنة 1885، وبقيت تصدر بهذا العنوان حتى سنة 1946.

عادت الجريدة إلى عنوانها الأصلي "لوجورنال دالجي" ابتداء من نوفمبر 1946، واستمرت في الصدور بهذا العنوان حتى تاريخ توقفها نهائيًا في الفاتح من جويلية 1962، ومن المعروف عن الجريدة أنها وقفت إلى جانب الجنرال "ديغول" بعد انقلاب 13 مايو 1958، كما أن جريدة "لوجورنال دالجي" كانت ترى في أحداث نوفمبر 1954 بأنها أحداثا إرهابية ناتجة عن عناصر غير وطنية خارجة عن القانون، ونلاحظ أن هذه الجريدة انتهجت نفس نهج الصحف الاستعمارية الأخرى، التي جرمت أحداث نوفمبر 1954، واعتبرتها أعمال غير قانونية، كما قللت من شأن المجاهدين واعتبرتهم إرهابيين، ووصفتهم بأبشع الأوصاف حتى تشوه صورتهم بالداخل والخارج، فكانت أداة فعالة في يد الإدارة الاستعمارية لإنجاح سياسة البروباغندا وإنجاح الحرب الدعائية ضد المشروع الثوري الذي تبناه الشعب الجزائري، وإنجاح كذلك الحرب النفسية التي كانت تهدف إلى عزل الشعب الجزائري عن فلسفة ومبادئ ثورته المجيدة.

4.1- جريدة لاديباش كوتيديان (La Dépêche Quotidienne):

يعود تاريخ نشأة الجريدة إلى أواخر القرن التاسع عشر حيث تأسست في 14 جويلية 1885م، وذلك بمناسبة احتفال فرنسا بعيدها الوطني، وكانت تحت عنوان "البرقية الجزائرية" (La depeche Algérienne)، وفي سنة 1887 ضمت إليها صحيفة "الجريدة الصغيرة" (Le petit journal)، استمرت الجريدة تحت هذا العنوان حتى 22 أكتوبر 1946م حيث تغير عنوانها إلى "لاديباش كوتيد ديان" (La depeche quotidienne)، وتستمر الجريدة بهذا العنوان الجديد حتى تاريخ صدورها من طرف السلطات الجزائرية بعد تأميم الجرائد الفرنسية في الجزائر سنة 1963م.

ظهرت جريدة "لاديباش كوتيديان" في حجم 58 على 44 سم وتحتوي على 10 صفحات، أما عدد السحب فكان يقدر بحوالي 50.000 نسخة في بداية الخمسينات، ومما تتميز به الجريدة هو الكتابة الواضحة على 08 أعمدة وبعناوين بارزة مرفقة بالصور الفوتوغرافية، وقد تناولت الجريدة عدة مواضيع، فقد خصصت صفحة للأوضاع السياسية في الجزائر، وصفحة لنشر الأخبار المحلية، وصفحة للمواضيع الثقافية والدينية، وصفحة للمواضيع الاجتماعية المختلفة، وغيرها من المواضيع الأخرى التي كانت الجريدة تعمل على نشرها.

ويمكن للقارئ أن يحدد التوجه السياسي للجريدة من خلال مطالعة مواضيعها المختلفة التي تحاول إثارتها، وكذا من خلال معرفة مؤسسها السيد "هنري بورجو"(Henri Borgeaud) ، الذي يعتبر أحد كبار الكولون في الجزائر، والذي ينتمي إلى التيار اليمني الرأسمالي، الذي يدافع بقوة عن الجزائر الفرنسية، خاصة إبان الثورة التحريرية الكبرى، كما وقفت الجريدة ومنذ ظهورها إلى جانب الكتلة الوطنية (Bloc National) اليمينية المعارضة لتحالف اليسار (Cartel de Gauche) في مختلف الانتخابات التي عرفتها الجزائر إبان حقبة الاحتلال.

5.1- برقية قسنطينة (la dépêche de Constantine):

تأسست برقية قسنطينة في 15 نوفمبر 1908 وأدارها السناتور "بول كيتولي" (Paul Cuttoli) واستمرت في الصدور مدة 55 سنة دون انقطاع وتوقفت بعد تأميم السلطات الجزائرية الجرائد الفرنسية في 17 ديسمبر 1963، لتبلغ أعدادها 17800 عدد إلى غاية سنة 1963.

تغير عنوان البرقية ثلاث مرات: حملت فيها المرة الأولى إسم " المستقل" (Independant)، ثم "صدى قسنطينة" (L'Echoc de Constantine) وأخيرا إسم "برقية قسنطينة والشرق الجزائري" La dépêche de Constantine et de (l'Est Algérien)، لتعوضها جريدة "النصر" في 28 ديسمبر 1963 تحت إشراف جبهة التحرير الوطني، ثم أصبحت تحت وصاية وزراة الإعلام بمقتضى موسوم 16 نوفمبر 1967، وعربت كليا بتاريخ 1 جانفي 1972.

عملت الجريدة طوال صدورها على خدمة مصالح الكولون والدفاع عن فكرة الجزائر الفرنسية، وتجلى هذا الموقف العدائي أكثر من خلال نظرتها المعادية للثورة الجزائرية، أما موقف الجريدة من الثورة التحريرية فقد تحكمت فيه رغبة الدفاع عن الوجود الفرنسي في الجزائر والانحياز لمصالح الكولون، كما وقفت من قبل في وجه الجزائريين المطالبين بحقوقهم، فقد جندت كل إمكانياتها لمحاربة الثورة التحريرية، وتبنت موقفها من الثورة على أساس الخط الذي تبناه السيد "روني مايير" (René Mayer) الذي خلف "بول كيتولي" في زعامة كولون الشرق الجزائري، ويعتبر "روني مايير" من أهم الشخصيات التي تقف وراء الجريدة ماديا وسياسيا، فكانت تعمل على تشويه سمعة مفجري الثورة من خلال نعتهم بأسماء وألفاظ مستهجنة، والتقليل من أهمية عمليات جيش التحرير، ومحاولة التأثير على نفسيات ومعنويات الشعب الجزائري عموما.

6.1- جريدة ليكودالجي(l'écho d'Alger):

شكلت جريدة ليكود الجي الاستعمارية نموذجا هاما للدور الذي لعبته الصحافة في الاحتلال الفرنسي للجزائر، فقد احتلت هذه الجريدة مكانة هامة على الساحة الإعلامية الفرنسية والأوربية في الجزائر، تأسست جريدة ليكود الجي سنة 1912 على يد الصحفي الفرنسي "إتيان بايلاك" (Étienne Baïlac) واستمرت في الصدور حتى سنة 1961 وأصبحت مع مرور الوقت تشكل أهم وأكبر الجرائد الاستعمارية في الجزائر، ومن مؤسسيها أيضا أحد أكبر أغنياء الجزائر في الفترة الاستعمارية وهم: "ألفريد بلاشيت" (Alfred Blanchette) و"جرمان" (Germain) و"مانانت"(Manent).

ظهرت جريدة ليكود الجي في حجم 58 - 44 سم في ستة أعمدة وبدأت ب 6 صفحات لتصل إلى 12 صفحة في نهاية الثلاثينيات وبدأ عدد السحب بحوالي 20000 نسخة ليرتفع إلى 80000 نسخة، وأصبحت بذلك من أكبر الجرائد سحبا في الجزائر وشمال إفريقيا.

دافعت هذه الجريدة بشدة على مصالح رجال الأعمال ومصالح الكولون، فهي اللسان الرسمي للمستوطنين الأوربيين، وحاولت أن تكون المعارضة الأولى لأي إصلاح من شأنه أن يكون في صالح الجزائريين، كما لعبت دورا كبيرا في إفشال "مشروع فيوليت" و"إصلاحات جونار"، فكانت منبرا حقيقيا لأصوات المستوطنين وساهمت فعلا في العمل الاستعماري الاستيطاني، وبالمقابل فإنها كانت تحاول إفشال مخططات الثورة، وتشويه صورة القادة الثوريين ووصفهم بالإرهابين الخارجين عن العدالة، كما راحت تصف الثوار بأنهم جماعات معزولة ومنبوذة من الجماهير التب لا ترغب سوى أن تبقى فرنسية كاملة الحقوق والواجبات، كما عملت الجريدة على نشر صور فوتوغرافية عن ثورة أول نوفمبر 1954، واصفة إياها بعمليات التخريب بغية تشويهها وتقزيمها في نظر الشعب الجزائري وعزله عنها.

2- المجلات:

لقد اقتصرنا في هذا العنصر على المجلة الإفريقية نظرا لندرة وقلة المجلات الأكاديمية المتخصصة في الجزائر خلال القرنين التاسع عشر والعشرين، فقبل سنة 1900م نكاد لا نصادف مجلات من هذا النوع سوى المجلة الإفريقية وبعض النشرات الصغيرة، أما مع بداية القرن العشرين فقد ظهرت نشرات أخرى لكنها كانت ضعيفة الانتشار وغير متخصصة في التاريخ وما يتعلق به، ولذلك نجد بأن أحسن وأبرزه المجلات هي المجلة الإفريقية.

1.2- المجلة الإفريقية (La revue africaine):

المجلة الإفريقية هي دورية تاريخية تأسست في الجزائر سنة 1856م، كانت تصدرها الجمعية التاريخية الجزائرية، وهي تعمل على نشر مختلف مقالات وأعمال الباحثين في مختلف المجالات، فقد شملت أكثر من عشرين مجالا وهي التاريخ والآثار، الأثنوغرافيا، الفلكلور، العادات والتقاليد، الأساطير، الديانات، الفنون الجميلة، الثقافة، اللغويات، اللهجات، السير والتراجم، الجغرافيا، الأدب، علم الاجتماع، الرحلات والتقارير، وقد استمرت في إصدار مقالاته إلى غاية 1962م.

عرفت مشاركة العديد من الضباط والمستشرقين الفرنسيين، ففي المرحلة الأولى عرفت الجزائر ظهور كتابات عسكرية تهتم بإثنوغرافية المجتمع، ومعرفة أصوله وكل ما يتعلق به كالعادات والتقاليد والأعراف والديانة، ومن أبرز المؤلفين والكتاب الذين ساهموا بكتاباتهم التاريخية في المجلة الإفريقية نجد كل من: (Basset) روني باسي،(De Slane) دوسلان، (Ch. Féraud) شارل فيرو، (Berbrugger) بير بروجر، (G.Mercier) جرورج مارسي، (M. Ben Cheneb) محمد بن أبي شنب.

عرفت المجلة الإفريقية تنظيما في أعدادها وفي محتوياتها من خلال تقسيم نصوص وأعمال الكتاب والمؤلفين إلى عدة فئات منها:

القسم الأول: مقالات رئيسية (رسمية) يطلق عليها في المجلة بـ (Partie officielle) التي تحوي مقالات متعددة المجالات ومن مختلف الكتاب منهم علماء الآثار، علماء الاجتماع، المؤرخين وحتى الأطباء وغيرهم، التي تعد الركيزة الأساسية من خلال محتويات المجلة

القسم الثاني: حوادث وأخبار تاريخية ويطلق عليها في المجلة بـ (Chronique) هي عبارة عن مجموعة من الاحداث والنصوص التي أرسلت من طرف مراسلين عسكريين ومدنيين داخل الجزائر وخارجها، يتناول أخبار مقاطعات "وهران، الجزائر، قسنطينة ثم فرنسا والدول الأوروبية والعربية".

القسم الثالث: يطلق عليه "بيان" أو كشاف ببليوغرافي bibliographique (Bulletin) فتقوم بنشر أخبار نشرت من قبل سواء في المجلة نفسها أو في المجلات الأخرى وتهتم أيضا بنشر الكشوفات الجديدة الأثرية بالمناطق الجزائرية، وتقديم أضافات أو تعليقات على النصوص المنشورة من قبل.

القسم الأخير: هو عبارة عن مجموعة من الملاحظات والتنويهات يطلق عليها بـ (Notes diverses)، التي يقوم بها أعضاء الجمعية، ولا تنشر بصفة دائمة لأن اهتماماتها أقل من الأقسام الأخرى، فتكون تلك الملاحظات موجهة أساسا للمراسلين وكذا لأعضاء الجمعية وبنسبة أقل للقراء والمشتركين.